أَثَرُ الإيمَانِ فِي حَيَاةِ الفَرْدِ

إنّ قضيّةَ الإيمانِ قضيّةٌ مصيريّةٌ بالنسبةِ للإنسانِ ، إنّها سعادةُ الأبدِ ، أو شقْوَةُ الأبدِ ، إنّها الجنّةُ أبداً ، أو النارُ أبداً ، وإنّ الإيمانَ ليس مجرّدَ إعلانِ المرءِ بلِسانه أنّه مؤمنٌ ، وليس مجرّدَ قيامِ الإنسانِ بأعمالٍ وشعائرَ اعْتادَ أنْ يقومَ بها المؤمنون ، وليس مجرّدَ معرفةٍ ذهنيّةٍ بِحقائقِ الإيمانِ ، وبكلمةٍ مختصرةٍ ليس الإيمانُ مجرّدَ عملٍ لِسانيٍّ ، ولا عملٍ بدنيٍّ ، ولا عملٍ ذِهنيٍّ ، إنّما هو علاوة على كل ذلك عملٌ نفسيٌّ ، يبلغُ أغوارَ النفسِ ، ويحيطُ بِجَوانبها كلِّها ؛ مِن إدراكٍ ، وإرادةٍ ، ووجْدانٍ .

لابدّ مِن إدراكٍ ذهنيٍّ تنكشفُ به حقائقُ الوُجودِ على ما هي عليهِ ، وهذا الانكشافُ لا يتمّ إلا عن طريقِ الوحيِ الإلهيِّ المعصومِ حصْراً ، ولابدّ أنْ يَبلُغَ هذا الإدراكُ العقليُّ حدَّ اليقينِ الذي لا يُزَلْزلهُ شكٌّ ، ولا ارْتِيابٌ ، ولابدّ أنْ يصْحبَ هذه المعرفةَ الجازمةَ إذعانٌ قلبيٌّ ، وانقيادٌ إراديٌّ ، يتحقق في الخضوعِ والطاعةِ ، ولابدّ أنْ يتْبعَ تلك المعرفةَ حرارةٌ وجدانيّةٌ مُسعِدةٌ ، مضمونُ هذا الإيمانِ هو وُجود الله تعالى ، ووحْدانيّتُه ، وكمالهُ ، والإيمانُ بالنبوّةِ والرسالةِ ، وبِوَحدةِ الدّين عند الله ، والإيمانُ بِمُثُلٍ إنسانيّةٍ واقعيّةٍ عليا ، وقُدواتٍ بشريّةٍ ممتازةٍ ، اسْتطاعَتْ أنْ تجعلَ مِن مكارمِ الأخلاقِ ، وصالحِ الأعمالِ وتضاؤلِ

النفوسِ حقائقَ واقعةً ، وشُخوصاً مرئيّةً للناسِ ، لا مجرّدَ أفكارٍ في بعضِ الرؤوسِ ، أو أمانيّ في بعض النفوسِ ، أو نظرياتٍ في الكتبِ والقراطيسِ .

كيف يقبلُ العقلُ الحرُّ ، أو ترضى الفطرةُ السليمةُ أنْ تنتهيَ الحياةُ ، وقد طغَى فيها مَن طغَى ؟ وبَغَى فيها مَن بَغَى ؟ وقَتلَ فيها مَن قتَل ؟ وقُتِلَ فيها من قُتِل ؟ وتجبَّر فيها من تجبَّر ؟ ولم يأخذْ أحدٌ مِن هؤلاء عقابَه ؟ بل تستّرَ واختفى ، أخلفَ ونجَا ، وفي الجانب الآخر كم استقامَ مَن استقام ؟ وأحسنَ مَن أحسنَ ؟ وضحّى مَن ضحّى ؟ وجاهدَ مَن جاهدَ ؟ وقدّمَ مَن قدّمَ ؟ ولمْ يَنَلْ جزاءَ ما قدَّم ، ألا يحِقُّ للعقلِ أنْ يؤمنَ إيماناً جازماً أنّه لابدّ أنْ توجدَ دارٌ أخرى تُسوَّى فيها الحساباتُ ، ويُجزى فيها المحسِنُ بإحسانه ، والمُسيءُ بإساءتِه .

هذه بعضُ حقائقِ الإيمان ، فما هي آثارُ الإيمانِ في نفسِ الإنسانِ ؟

يقولُ اللهُ جلّ جلاله في كتابه العزيز منوِّهاً بالإنسان :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إنّ الإنسانَ مخلوقٌ كريمٌ عند الله تعالى ، خلَقهُ في أحسنِ تقويم ، وكرَّمه أعظمَ تكريم ، وصوّرهُ فأحسنَ صورتَه ، خلَقهُ بيده ، ونفخَ فيه مِن روحِه ، وأسْجَدَ له ملائكتَه ، وميّزه بالعلمِ والإرادةِ ، وجعلَه خليفتَه في الأرض ، وسخّر له ما في السماواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه ، وأسْبَغَ عليه نعمهُ ظاهرةً وباطنةً ، فكلّ ما في الكون له ، ولخِدْمته ، أمّا هو

فجعَلَه تعالى لنفسه ، لذلك يشعرُ المؤمنُ بذاته ، ويُغالي بقيمةِ نفسهِ ، لأنّه يعْتزّ بانتسابه إلى الله تعالى ، وارْتباطِه بكلّ ما في الوُجود ، ويحيا عزيزَ النفسِ عاليَ الرأس ، أبِيًّا للضّيْم[1] ، عصِيًّا على الذلّ ، بعيداً عن الشّعور بالتفاهةِ ، والضّياعِ ، والصّغارِ ، والفراغ ، ولله درّ القائل مخاطباً الإنسانَ :

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرْ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُشْعِرْ

وقال آخرُ :

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

أمَّا الإنسانُ في نظرِ الماديّين فلا يزيد ثمنُه على مئةٍ مِنَ العملاتِ الرخيصةِ ، لأنّ فيه من الدّهنِ ما يكفي لصُنع سبعِ قطعٍ مِنَ الصابون ، وفيه مِنَ الفحمِ ما يكفي لصُنعِ سبعةِ أقلامٍ مِنَ الرصاصِ ، وفيه مِنَ الفوسفورِ ما يكفي لِصُنع مئةٍ وعشرينَ عودَ ثقابٍ ، وفيه من ملحِ المَغنيزيوم ما يصلحُ جرعةً واحدةً لأحدِ المسهّلاتِ ، وفيه مِن الحديدِ ما يساوي مسماراً متوسّطَ الحجمِ ، وفيه من الكلسِ ما يكفي لطلاءِ بيتِ دجاجٍ ، وفيه مِن الكبريتِ ما يكفي لتطهيرِ جِلدِ كلبٍ واحدٍ ، وفيه مِن الماءِ ما يزيد على ثلاثين لتراً ؛ وهذا هو الإنسانُ في نظرِ الماديّينَ .

إنّ السلامةَ والسعادةَ مطلبانِ ثابتانِ لكلّ إنسان ، كائناً مَن كان ، وفي كلّ زمانٍ ومكان ، مِن الفيلسوفِ في قمّةِ تفكيره ، إلى العاميّ في قاع

(١) [الضيم هو الظلم ، وضامه حقَّه ضيْماً ، نَقَصَه إيَّاه] ، (لسان العرب مادة ضيم) .

سذاجتِه ، ومِن الملِكِ في قصرِه المَشيدِ ، إلى الصعلوكِ في كوخِه الحقيرِ ، ومِن المترفِ في ملذّاته ، إلى الفقيرِ في ويْلاتِهِ ، ولكنّ السؤالَ الذي حيَّرَ الإنسانَ عبْر العصورِ والأجيالِ : أين السعادةُ ؟ ولماذا الشقاءُ ؟ والجوابُ : لقد طلبَها أكثرُ الناسِ في غيرِ موْضِعِها ، فعادوا كما يعودُ طالبُ اللّؤلؤ في الصّحراء ، صِفْرَ اليديْنِ ، مجهودَ البدَن ، كَسِيرَ النّفْسِ ، خائبَ الرّجاء ، لقد توهّمُوها في ألوانٍ مِنَ المُتَعِ الماديّة ، وفي أصنافٍ مِنَ الشّهواتِ الحسيّةِ ، فما وجدوها تحقّقُ السعادةَ أبداً ، وربّما زادتْهم مَعَ كلّ جديدٍ منها همًّا جديداً ، خُذْ مِنَ الدّنيا ما شئْت ، وخُذْ بنذْرها همًّا ، ومَن أَخَذَ مِنَ الدّنيا فوقَ ما يكفيه أَخَذَ مِن حَتْفِهِ ، وهو لا يشعر ، ولابدّ مِنَ التفريقِ بين السعادةِ واللّذّة ، فاللّذةُ طبيعتُها حِسيّةٌ ، مرتبطةٌ بالجسدِ الفانِي ، تأتي مِن خارجِ الإنسانِ ، فهو يلهثُ وراءَها ، متعِبةٌ في تحصيلها ، متناقصةٌ في تأثيرها ، تتْبعها كآبةٌ مدمِّرةٌ ، تنقطعُ بالموتِ ، فإن كانتْ مبنيّةً على الظنِّ والعدوانِ اسْتحقّ صاحبُها جهنّمَ إلى أبد الآبدين .

وأما السعادةُ فطبيعتُها نفسيّةٌ مرتبطةٌ بذاتِ الإنسانِ الخالدةِ ، تنبعُ مِن داخلِ الإنسانِ ، سهلةٌ في تحصيلها ، متناميَةٌ في تأثيرها ، يشقىٰ الإنسانُ بِفَقْدها ، ولو مَلَكَ كلَّ شيءٍ ، ويسْعدُ بها ، ولو فَقَدَ كلَّ شيءٍ ، تقفِزُ إلى ملايين الأضعافِ بعدَ الموتِ ، ويستحقُّ صاحبُها جنّةً عرضُها السماواتُ والأرضُ ، فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ ، وفيها نظرٌ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ .

واللّذّة تحتاجُ إلى عناصرَ ثلاثةٍ ؛ وقتٍ وصحّةٍ ومالٍ ، والإنسانُ يفتقدُ

أحدَ هذه العناصر في كلّ طورٍ من أطوار حياته .

ففي الطّور الأوّلِ مِن حياته يتوافرُ له الوقتُ والصحّةُ ، ويفتقدُ المال .

وفي الطور الثاني مِن حياته يتوافر المالُ والصحّةُ ، ويفتقدُ الوقتَ .

وفي الطورِ الثالثِ مِن حياتِه يتوافرُ الوقتُ والمالُ ، ويفتقدُ الصحّةَ ، لكن السعادةَ تحتاجُ إلى عناصرَ ثلاثةٍ ؛ إيمانٍ بالله إيماناً حقيقيًّا ، واستقامةٍ على أمرِه ، وعملٍ صالحٍ تُجاهَ خلْقِه ، وهذه متوافرةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلّ طورٍ مِن حياةِ الإنسانِ .

غاضبَ زوجٌ زوجتَه يوماً ، فقال لها متوعِّداً : لأُشْقِيَنَّكِ ! فقالتْ الزوجة في هدوءٍ : لا تستطيعُ أنْ تُشقيَني ، ولا تملكُ أنْ تُسعدَني ، فقال الزوجُ في حُمقٍ : وكيفَ لا أستطيعُ ؟ فقالت الزوجة في ثقة : لو كانت السعادةُ في مالٍ ، وكنتَ تملكهُ لقطعْتهُ عنّي ، ولو كانت السعادةُ في الحليّ لحرمْتني منها ، ولكنّها في شيءٍ لا تملكهُ أنت ، ولا الناسُ جميعاً ، فقال الزوجُ في دهشة : وما هو ؟ فقالت الزوجةُ في يقينٍ : إنّي أجدُ سعادتي في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي لا سلطانَ لأحدٍ عليه غيرَ ربّي .

هذه هي السعادةُ الحقيقيةُ التي لا يملك بشرٌ أنْ يُعطِيَها ، ولا يملكُ أحدٌ أن ينتزعَها ممّن أُوتِيَها ، ولكن بِنَظْرةٍ واقعيّةٍ لا ننْكرُ أنّ للجانبِ الماديّ مكاناً محدوداً في تحقيقِ السعادةِ ، فقد قال ﷺ : « أربع من السعادة ؛ المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء ، وأربع من الشقاء ؛ الجار السوء ، والمرأة السوء ،

والمركب السوء ، والمسكن الضيق »[١] ، ولكن ليس لهذا الجانبِ المكانُ الأوّلُ ، ولا المكانُ الفسيحُ ، والمدارُ فيه على الكَيْفِ لا على الكَمِّ ، فحسْبُ الإنسانِ أنْ يسْلَمَ مِن المنغِّصاتِ الماديّةِ التي يضيقُ بها الصّدْرُ ، وأن يُمنحَ الأمْنَ والعافيَةَ ، وأنْ يتيسّرَ له القوتُ من غيرِ حرجٍ ، ولا إعناتٍ ، وما أرْوَع وأصدقَ ذلك الحديثَ النبويَّ الشريفَ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ[٢] ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »[٣] ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « وَإِنَّ اللهَ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ والسُّخْطِ »[٤] .

يكشف هذا الحديثُ الشريفُ عن حقيقةٍ نفسيّةٍ باهرةٍ ، فكما أنّ سنّةَ الله قد ربطَتْ الشِّبَعَ والرِّيَّ بالطعامِ والشرابِ في عالَمِ المادّةِ ، فإنّ سنّته تعالى في عالَمِ النفْسِ قد ربطَتْ الفَرَحَ والرَّوْحَ ، أي السرورَ وراحةَ النفسِ بالرضا واليقينِ ، فبرِضا الإنسانِ عن نفسِه ، وعن ربّه ، يطمئنُّ إلى يومِه وحاضرِه ، وبيقينِه بالله تعالى ، وبالجزاءِ في اليومِ الآخرِ يطمئنُّ إلى غدِهِ ومستقبَلِهِ ، فما ربَطَتْ سنّةُ اللهِ الغمَّ والحزنَ بالسّخطِ والشكِّ ، فالساخطون والشاكُّون لا يذوقون للسرورِ طعماً ، إنّ حياتَهم كلَّها سوادٌ ممتَدٌّ ، وظلامٌ متّصلٌ ، وليلٌ حالكٌ ، لا يعقبهُ نهارٌ ، أما حُزنُ المؤمنِ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٢٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٥٦) ، عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) [سِربه بالكسر ، أيْ في نَفْسِه] ، النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٥٦) .

(٣) رواه الترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ (٢٣٤٦) .

(٤) الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٥) ، والبيهقي في الشُّعَب (١/ ٢٢١) .

لغيرِه فأكثرُ مِن حزنِه لنفسه ، وإذا حزِنَ لنفسهِ فلآخرته قبلَ دنياه ، وإذا حزِن لدُنياه فهو حزْنٌ عارضٌ موقوفٌ كغَمَامِ الصّيفِ ، سرعانَ ما ينقشعُ إذا هبَّتْ عليه رياحُ الإيمانِ .

* * *

قصة وفد اليمن

قدِمَ على النبيِّ ﷺ وفدُ مِنَ اليمَنِ ، وهم ثلاثةَ عشرَ رجلاً ، ساقوا معهم صدقاتِ أموالِهم التي فرضَ اللهُ عليهم ، فسُرَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بهم ، وأكرمَ منزلَهم ، وقالوا : يا رسولَ الله ، سُقنا إليك حَقَّ الله في أموالِنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « رُدّوها فاقسموها على فقرائِكم » ، قالوا : يا رسول الله ، ما قَدِمْنَا عليكَ إلا بما فَضُلَ عن فقرائنا ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسولَ الله ، ما وَفَدَ من العربِ بمثلِ ما وفَدَ به هذا الحيُّ . . . فقال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الهدَى بيد الله عز وجل ، فمَن أرادَ به خيراً شرَحَ صدرَه للإيمانِ » ، وسألوا النبيَّ عليه الصلاةُ والسلام أشياء ، فكتبَ لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآنِ والسّننِ ، فازدادَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ بِهِم رغبةً ، وأمر بلالاً أنْ يُحسنَ ضيافتَهم ، فأقاموا أيّاماً ، ولم يُطيلوا المُكْثَ ، فقيل لهم : ما يُعجِّلُكم ؟ فقالوا : نرجعُ إلى مَن وراءَنا فنُخبرُهم برُؤيتِنا رسولَ الله ﷺ ، وكلامِنا إيّاه ، وما ردّ علينا ، ثمّ جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يودِّعونه ، فأرسل إليهم بلالاً ، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيز به الوُفودَ ، قال : « هل بقيَ منكم أحدٌ ؟ قالوا : نعم ، غلامٌ خلَّفْناه

على رِحالنا ، هو أحدثُنا سِنًّا ، قال : أرسلوه إلينا ، فلمّا رجعوا إلى رحالهم ، قالوا للغلام : انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فاقْضِ حاجتك منه ، فإنّا قد قضيْنا حوائجنا منه ، وودَّعْناه ، فأقبلَ الغلام حتى أتى النبيَّ عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رسول الله ، إنِّي امرؤٌ من بني أبذى ، يقول : من الرّهط الذين أتَوْك آنفاً ، فقضَيْتَ حوائجهم ، فاقْض حاجتي يا رسول الله ؟ قال : « وما حاجتك ؟ » قال : إنّ حاجتي ليْسَت كحاجة أصحابي ، وإنْ كانوا قدِموا راغبين في الإسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وإنّي واللهِ يا رسول الله ما أَقْدَمَنِي مِن بلادِي إلا أنْ تسأل اللهَ عز وجل أن يغفرَ لي ويرحمَني ، وأنْ يجعلَ غِنَايَ في قلبي ، فقال عليه الصلاة والسلام ، وأقبلَ إلى الغلام : « اللهمّ اغفر له وارحمهُ ، واجعل غِناه في قلبه » ، ثمّ أمرَ له بمثْلِ ما أمرَ به لرجلٍ مِن أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ، ثمّ وافَوا رسول الله ﷺ في الموسم بمِنًى سنةَ عشرٍ ، فقالوا : نحنُ بنو أبذَى ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما فعلَ الغلامُ الذي أتانِي معكم » ؟ قالوا : ما رأينا مثلهُ قطّ ، ولا حُدِّثنا بأقنع منه بما رزقَه الله ، لو أنّ الناسَ اقْتسَموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفتَ إليها ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله ، إنِّي لأرجو أنْ يموت جميعاً » ، فقال رجل منهم : يا رسول الله ، أوَ لَيس يموتُ الرجلُ جميعاً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « تشعّبُ أهواؤُه وهمومُه في أوديةِ الدنيا ، فلعلّ أجلَهُ يدركُه في بعض تلك الأوديةِ ، فلا يُبالي اللهُ عز وجل في أيّها هَلَكَ ، قالوا : فعاش ذلك الغلامُ فينا على أفضلِ حالٍ ، وأزهده في الدنيا ، وأقنعه بما رُزق ، فلمّا توفّي النبيُّ عليه الصلاة والسلام رجعَ

مَن رجع مِن أهل اليمن عن الإسلام ، قامَ في قومه ، فذكّرهم الله والإسلام فلم يرجع منهم أحدٌ ، وجعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه يذكُرهُ ، ويسأل عنه حتى بلغَهُ حالُه ، وما قام به ، فكتبَ إلى زيادِ بن لبيد يوصِيه به خيراً[١] .

هذه هي القناعةُ عند المؤمنِ ، فالناسُ يموتون على ما عاشوا عليه ، فمَن عاش جميعاً مات جميعاً ، ومن عاش أوزاعاً شتّى ، وأجزاءً متنافرةً ماتَ كما عاش ، وقليلٌ مِنَ الناس ، بل أقلُّ مِنَ القليلِ ، ذلك الذي يعيشُ لغايةٍ واحدة ، ويجمعُ همومَه في همٍّ واحدٍ ، يحيا له ، ويموتُ له ، وذلك هو المؤمنُ البصيرُ الذي غايتُه الفرارُ إلى الله ، وسبيلُه اتّباعُ ما شَرَعَ الله تعالى ، كلُّ شيءٍ في حياته لله ، وبالله ، وحالهُ تنطق به هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، وقولُه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[الأنعام : ٨٢]

إنَّ الناسَ يخافون من أشياءَ كثيرةٍ ، وأمورٍ شتّى ، ولكنّ المؤمنَ سدَّ أبوابَ الخوفِ كلَّها ، فلا يخافُ إلاّ مِنَ الله وحده ، يخاف أن يكون فرَّط في حقّه أو اعتدى على خلقه ، أما الناس فلا يخافهم ؛ لأنّهم لا يملكون له ضرًّا ، ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياةً ، ولا نشوراً .

---

(١) انظر زاد المعارج ص٥٦٧ وانظر البداية والنهاية ج٥ ص٨٤ .

والمؤمنُ آمنٌ على رزقِه أنْ يفوتَه ، فإنّ الأرزاقَ في ضمانِ الله تعالى ، الذي لا يخلفُ وعْدَه ، ولا يضيّعُ عبدَه ، وهو الذي يُطعمُ الطّيرِ في وُكُنَاتِها[١] ، والسّباعَ في الفلواتِ ، والأسماكَ في البحارِ ، والدّيدانَ في الصّخور ، وهو الذي يَسمعُ دبيبَ النملةِ السمراءِ ، على الصخرةِ الصمّاءِ ، في الليلةِ الظلماءِ .

لقد كان المؤمنُ يذهبُ إلى ميدانِ الجهادِ حاملاً روحه على كفّه ، متَمَنِّياً الموتَ في سبيل عقيدته ، ومِن خلْفه ذريّةٌ ضعافٌ ، وأفراخٌ زُغْبُ الحواصِلِ[٢] ، لا ماءٌ ولا شجرٌ ، ولكنّه يوقنُ أنّه يترْكُهم في رعايةِ ربٍّ كريمٍ ، هو أَبَرُّ بهم وأرحم ، وتقولُ الزوجةُ عن زوجها ، وهو ذاهبٌ في سبيل الله تعالى : إنّي عرفتهُ أكّالاً ، وما عرفتُه رزّاقاً ، ولَئِنْ ذهبَ الأكّالُ لقد بقيَ الرزّاقُ .

إنّ المؤمن آمنٌ على أَجَلِهِ ، فإنّ اللهَ قدّر له ميقاتاً مسمًّى ، وأيّاماً معدودةً ، وأنفاساً محدودةً ، ولا تملِكُ قوّةٌ في الأرض أنْ تُنقِصَ مِن هذا المقدارِ ، أو تزيدَ فيه ، لقد هدَّدَ الحَجّاجُ سعيدَ بنَ جبير التابعيَّ الجليلَ بالقتل ، فقال له سعيدُ بنُ جبيرٍ : « لو علمْتُ أنّ الموتَ والحياة في يدك ما عبدتُ غيرك » .

---

(١) [الوَكْن ـ بالفتح عشّ الطائر] ، (لسان العرب ، مادة وكن) .

(٢) [الزغب الشعيرات الصفر ، على ريش الفرخ ، وقيل : هو صغار الشعر والريش وليِّنه] ، (لسان العرب ، مادة زغب) ، [الحوصلة من الطير بمنزلة المعدة من الإنسان] ، (لسان العرب ، مادة حصل) ، والمقصودُ بهذا الكلامِ الصِّغَرُ ، والضعفُ ، وعدمُ القدرةِ والقوةِ .

إنّ الإيمانَ والأمَلَ متلازمانِ ، فالمؤمنُ أوْسعُ الناس أملاً ، وأكثرُهم تفاؤُلاً واستفساراً ، وأبْعَدُهم عن التشاؤم والتبرّم والضّجر ، الإيمانُ معناه الاعتقادُ بقُوّة عُلْيَا تدبّرُ هذا الكونَ ، لا يخفى عليها شيءٌ ، ولا تعجزُ عن شيءٍ ، وبيَدِها كلُّ شيء ، المؤمنُ يعتصمُ بهذا الإلهِ العظيمِ ، البرِّ الرحيمِ ، العزيزِ الكريمِ ، الغفورِ الودودِ ، ذي العرشِ المجيدِ ، الفعّالِ لما يريد ، يُجيبُ المضطرّ إذا دعاه ، ويكشفُ السوءَ ، ويقبلُ التوبةَ عن عباده ، ويعفو عن السيّئات ، هو أرحَمُ بعباده مِنَ الأمِّ بولدِها ، وأبرُّ بالخلْقِ مِن أنفُسِهم ، وإنّ المؤمنَ إذا حاربَ كان واثقاً بالنّصرِ ، لأنّه مع الله تعالى ، ولأنّه لله ، فاللهُ له ، قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات : ١٧٢ـ١٧٣] .

وهذا درسٌ بليغٌ لنا في معركتنا معَ أعدائنا ، والمؤمنُ إذا مرِضَ لم ينقطع أملُه مِنَ العافية ، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء : ٨٠] ، والمؤمنُ إذا اقترفَ ذنباً لم ييْأسْ مِنَ المغفرةِ ، قال تعالى :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وهو إذا أعسرَ لم يزلْ يؤمِّلُ اليُسْرَ ، قال تعالى :

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح : ٥ـ٦] ، وإذا انتابتهُ كارثةٌ من الكوارثِ كان على رجاءٍ مِنَ الله أنْ يأجرَهُ في مصيبته ، وأنْ يُخْلِفَه خيراً منها ، وإذا رأى الباطلَ يقومُ في غفلةِ الحقِّ ، يصولُ ويجولُ أيقنَ أنّ الباطلَ إلى زوالٍ ، وأنّ الحقَّ إلى ظهورٍ وانتصارٍ ، وإذا أدركتْهُ

الشيخوخةُ ، واشتعلَ رأسهُ شيباً ، لا ينفكُّ يرجو حياةً أخرى ، شباباً بلا هرَمٍ ، وحياةً بلا موتٍ ، وسعادةً بلا شقاءٍ .

والمؤمنون هم أصْبَرُ الناسِ على البلاءِ ، وأثْبَتُهم في الشدائدِ ، وأَرْضَاهُم نفساً في المُلِمَّاتِ ، عَرَفُوا أنّ هذه الدنيا دارُ التواء ، لا دار استواءٍ ، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، وأنّ مَن عرفَها لم يفرحْ لرخاء ، ولم يحزنْ لشقاء ، قد جعلها اللهُ دار بلوى ، وجعلَ الآخرةَ دارَ عُقْبَى ، فَجَعَلَ بلاءَ الدنيا لعطاءِ الآخرة سبباً ، وعطاءَ الآخرة مِن بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذُ ليُعطي ، ويبتلي ليجزي ، وعرفوا أنّ ما ينزلُ مِن مصائبَ ليس ضرباتٍ عجماءَ ، ولا خبطَ عشواءَ ، ولكنّه وَفْقَ قدرٍ معلومٍ ، وقضاءٍ مرسومٍ ، وحكمةٍ إلهيّة ، فآمنوا بأنّ ما أصابهم لمْ يكن ليُخطئَهم ، وما أخطأَهم لم يكن ليُصيبَهم ، وعرفوا أنّ اللهَ يقدّرُ ويلْطفُ ، ويبتلي ويخفّفُ ، ومَن ظنّ انفكاكَ لطفه عن قدَرِه فذلك لقُصورِ نظرِه ، وعرفوا أنّ وراء كلّ شِدّة شَدَّةً إلى الله ، وأنّ وراءَ كلّ محْنةٍ مِنْحةً منه سبحانه .

* * *

الوَردةُ الجُوريةُ

يوقِنُ الباحثُ في العلمِ ، ويشعرُ المتأمّلُ في الكونِ ، حينما يقرأُ آياتِ القرآنِ المتعلّقةَ بخلْقِ الأكوانِ والإنسانِ ، يوقنُ ويشعرُ بكلّ خليّةٍ في جسمِه ، وبكلّ قطرةٍ في دمِه أنّ هذا القرآنَ كلامُ الله ، المنزّلُ على نبيّه محمّدٍ رسولِ الله ، وأنّه مستحيلٌ أنْ يأتيَ به بشرٌ ، فرادَى أو مجتمعِين ، فمِن خلالِ المؤتمراتِ العالميّةِ التي عُقِدَت في عواصمَ متعدّدةٍ في أنحاءِ

العالَم حوْلَ الإعجازِ العلميِّ في الكتابِ والسنّةِ ، يتَّضِحُ أنّ أبحاثاً علميّةً جادّةً ورصينةً ، قام بها علماءُ ليسوا مسلمين ، ولا تَعْنِيهِمْ آياتُ القرآنِ الكريمِ ، استغْرَقَتْ عشرَ سنوات ، وكلَّفتْ ملايينَ الدولاراتِ ، تأتي نتائجُ بحوثِهم مطابِقةً مطابَقةً عفويَّةً وتامّةً مِن دونِ تَكَلُّفٍ ، ولا تَعَنُّتٍ ، ومن دون تأويلٍ بعيدٍ عن الآيةِ ، أو تعديلٍ مفتعلٍ لحقيقة ، تأتي نتائجُ بحوثِهم تلك مطابِقةً لآيةٍ ، أو لكلمةٍ في آية ، بل لحرفٍ واحدٍ في آية ، وهذا مِصْداقُ قولِه تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ففي الواحد والثلاثين مِن تشرين الأوّل من عامِ (١٩٩٠م) عرضَتْ إحدَى أقوَى وكالاتِ الفضاءِ في العالَمِ مِن خِلالِ مَرصَدٍ عِمْلاقٍ عبرَ موقِعِها المعلوماتي صورةً لا يشكُّ الناظرُ إليها لحظةً أنّها وردةٌ جوريّةٌ ، ذاتُ أوراقٍ حمراءَ قانيةٍ ، مُحاطةٌ بِوُرَيقاتٍ خضراءَ زاهيةٍ ، وفي الوسطِ كأسٌ أزرقُ اللّون ، أمّا حقيقةُ هذه الصورةِ فهي صورةٌ لانفجارِ نجمٍ عملاقٍ اسمُه عَينُ القِطّ ، يبعدُ عنّا ثلاثةَ آلاف سنةٍ ضوئيّةٍ ، وفي هذا الموقعِ المعلوماتيِّ آلافُ الصّوَرِ الملوَّنةِ التي رصدَتها المراصدُ العملاقةُ لِعَجائبِ الفضاءِ ، ولكنْ ما علاقةُ هذه الصورةِ بإعجازِ القرآنِ ؟ .

في القرآنِ الكريمِ آيةٌ مِنْ سورةِ الرحمنِ ، هي قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرحمن : ٣٧] ، لو تتبَّعْتَ تفسيرَها في معظمِ التفاسيرِ قبلَ نشْرِ الصورةِ ، لَمَا وجدتَ فيها ما يُشفِي غليلَك ، ذلك لأنّ في القرآنِ آياتٍ لمَّا تُفَسَّرْ ، كما قال الإمام عليٌّ كرّم

وجهه ، وإنّ انشقاقَ هذا النّجمِ يُشبهُ وردةً متألّقةً ، بل إنّ صورةَ هذا النجمِ عندَ انفجارِه ربما كان تفسيراً لهذه الآية ، بشكلٍ أو بآخرَ ، هذا لونٌ مِن ألوانِ الإعجاز .

ولونٌ آخرُ ؛ بعضُ النجومِ تبعدُ عنّا عشرينَ ملياراً مِن السنوات الضوئيّة ، أي : إنّ ضوءَها بقيَ يسيرُ في الفضاءِ الكونيِّ عشرين مليار سنةٍ حتى وصل إلينا ، عِلماً أنّ الضوءَ يقطعُ في الثانيةِ الواحدةِ ثلاثمئة ألف كيلو متر ، فكم يقطعُ في السّنةِ ؟ وكم يقطعُه في عشرينَ مليار سنة ؟! فهذا النّجمُ الذي وصلَ إلينا ضوءُه بعدَ عشرين مليار سنة أين هو الآن ؟ إنّه يسيرُ بسُرعةٍ تقتربُ مِن سرعةِ الضّوءِ ، لذلك جاءتْ الآيةُ الكريمةُ :

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾

[الواقعة : ٧٥ـ٧٦]

إنّ كلمةَ (مَواقع) في هذه الآيةِ هي سرُّ إعجازِها ، فالموقعُ لا يعني أنّ صاحبَ الموقعِ موجودٌ فيه ، فاللهُ جلّ جلالُه لم يُقسِمْ بالمسافاتِ التي بيْنَ النجومِ ، ولكنّه أقْسَم بالمسافاتِ التي بينَ مواقعِ النجومِ ، ذلك لأنّ النجومَ متحرّكةٌ ، وليْسَت ثابتةً ، ولو قرأَ عالِمُ الفلَكِ هذه الآيةَ لخرَّ ساجداً لله عز وجل ، فقد قال الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [الواقعة : ٧٦] ، أي : إن من يعلمون ذلك وحدَهم يقدّرون عظمةَ هذه الآيةِ ، لذلك :

﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

* * *